في تفسير الكتاب المقدّس، الجزء الرابع

المتروبوليت سابا (اسبر)

وردتني عدة أسئلة تستوضح المقصود بمقاربة الكتاب المقدس المعاصرة والجديدة. سأحاول الإجابة مستعينا بكلام الميتروبوليت كاليستوس وير [المنشور في مقابلة له مع السيد كيرياكو ماركيدي في كتابه: *عطايا البرية*، الفصل الثامن بعنوان: مهتدون، ص١٦٠-١٦٣].

يطرح العقل المعاصر، انطلاقاً من علميته ودقته في قراءة الأمور وقدرته على التحليل من جهة، وتقدم العلوم كما ذكرنا سابقاً[١]، من جهة ثانية، أسئلة ما كان يطرحها بحدة في الماضي. من هذه الأسئلة كيف صار الحدث؟ ما الذي جرى بالضبط؟ ما تفسير بعض أوجه الشبه بين الوارد في بعض القصص، في العهد القديم بخاصة، والمكتشفات الأدبية الثقافية البابلية والآشورية وغيرها القديمة؟

أن تستخدم لغة العصر الذي تعيش فيه لتنقل البشارة المسيحية أمر طبيعي ولا غنى عنه. هذا ليس ابتداعاً أو مروقاً عن المألوف. لكن عندما تبشر بأفكار تتناقض وإيمانك ولا تتوافق مع "الإيمان المسلم للقديسين مرّة" (يهوذا ١: ٣) فأنت تقع في البِدَع. الأمر غاية في الدقة.

لننطلق من الإنجيل حيث نجد أن جميع أمثال الرب يسوع كانت زراعية ومن واقع فلسطين الثقافي آنذاك. تكلم بحبة الخردل والزارع والراعي وما إلى ذلك لأنها لغة البيئة التي عاش فيها آنذاك، وهي الأمثال التي يفهمها الشعب الذي خاطبه الرب وسعى إلى خلاصه آنذاك.

أنت مضطر إلى شرح الإطار التاريخي للنص استعدادا للدخول في معناه وقصده. فعلى سبيل المثال، في زمننا الحالي نضطر إلى شرح كيفية الزراعة في الشرق الأوسط زمن بشارة المسيح قبل البدء بتفسير مَثَل الزارع. وذلك حتى يفهم الناس كيف وقع الحبّ على الصخر الطريق وبين الشوك وفي الأرض الجيدة.

---

[١] في تفسير الكتاب المقدّس، الجزء الثالث.

أن تستخدم علوم الدنيا كأمور مساعدة في إيصال البشارة، ليس أمراً جديداً. اتّبع هذا الأمر بولس الرسول عندما بشر أهل أثينا بالمسيح؛ فقد انطلق من واقعهم الديني الذي رآه في أثينا (مذبح الإله المجهول)، واستشهد ببعض شعرائهم اليونان "به نتحيا ونتحرك ونوجد" (أع١٧: ٢٨) ليقرب إليهم ما يود تبشيرهم به.

بالعودة إلى السؤال الأول، ذكرنا سابقا تحديات إيمانية أوجدها علم التاريخ والآثار والتطور العلمي بخصوص نصوص كثيرة في الكتاب المقدس، العهد القديم منه بخاصة. لم تكن توجد قبل القرن الثامن عشر وما تلاه. تحتم هذه التحديات على الكنيسة أن تسعى إلى الحوار معها وتقديم الجواب الإيماني الأمين. طالما أننا نؤمن بحضور الروح القدس الفاعل والحي في الكنيسة، فيجب أن نؤمن بقدرته على الخلق الدائم والإلهام الدائم حتى تستطيع الكنيسة الاستمرار في العمل على خلاص العالم.

أما بخصوص استعمال المقاربة النقدية في دراسة الكتاب المقدس. نقول بدءاً أن المقاربة النقدية ليست مدرسة واحدة وتتفاوت مدارسها كثيرا في طرق التفسير. يقول المطران كاليستوس:

> "علينا كأرثوذكس أن نوافق على دراسة العهد الجديد نقدياً واستعمال كل مصادر البحث. نحن لا نخدم المسيح الذي هو الحقيقة إذا أغلقنا آذاننا ورفضنا الإصغاء أو النظر. يوجد مكان بالتأكيد للدراسة النقدية للكتاب المقدس. نحن الأرثوذكس نؤكد على مبدأ البحث الحر، ولكن لا نوافق دائما على نتائج اللاهوتيين الليبراليين. ثانيا، نحن الأرثوذكس، في مقاربتنا للكتاب المقدس، لا نتبّنى بالضبط وجهات نظر البروتستانت الأصوليين. فنحن نؤمن، مثلهم، بأن الكتاب المقدس صحيح، لكننا لا نعزل كل جملة ، كل كلمة بحد ذاتها، بل ننظر إلى مجمل رسالة الكتاب. لطالما كان هذا مبدأ أرثوذكسي للتفسير الكتابي: أي نأخذ الكتاب ككل ونفهم جزء منه على ضوء الجزء الآخر. وهكذا لا نعزل نصوصا كما يفعل الأصوليون. أذهب إلى أبعد من ذلك، نحتاج أيضا إلى القول بوجود طرق كثيرة للتعبير عن الحقيقة وإلى القول بأن الحرفية ليست هي النوع الوحيد للتعبير عن الحقيقة.

"إن الفهم الصحيح للكتاب لا يأتي فقط من البحث التاريخي في الأصول الببيلية بل من خلال النظر في كيف عيش الكتاب وفُهم في الكنيسة. تكمن صعوبة المقاربة التاريخية – النقدية في أنها تكتفي بالعقل المفكر بمعزل عن الشخص بكليته، فتفهم الكتاب المقدس من خلال إعمال العقل فقط في دراسة الباحث. في حين أن الفهم السليم للكتاب المقدس يأتي من خلال الشخص بكليته. فإلى جانب العقل المفكر، ثمة طرق أخرى كثيرة للفهم. لا يتم الأمر بالجلوس وحيدا في المكتبة وقراءة الكتب، بل، وبالأساس، بواسطة العبادة، بواسطة مشاركة حياة الجماعة الكنسية، بواسطة الصلاة سوياً- الصلاة بفهم قلبي أيضاً، وهي أعمق بكثير من مجرد عواطف أو دماغ مفكر. إذن يأتينا الفهم الصحيح للكتاب بواسطة حياة العبادة في الكنيسة. مفسرو الكتاب الحقيقيون ليسوا هم البحّاثة العلماء، مع أنه يجب الإصغاء لهم. مفسرو الكتاب الحقيقيون هم القديسون.

"هناك ميل لاتّباع الحَرْفية في فهم الكتاب المقدس. لكن كي نفهم هذا الكتاب المقدس يجب أن نفهمه ليتورجياً واختبارياً: من خلال الاحتفال بالقداس الإلهي، من خلال الاشتراك في الأسرار، من خلال الكنيسة، حياة آبائها وأمهاتها الروحيين. تشكل هذه كلها جزءاً من غنى الكنيسة الإجمالي. هذا هو السياق الذي عندنا لفهم الكتاب المقدس. إننا نسمح لشهادة القديسين بكل المدى. لنتذكر ما قاله الأسقف نيقولاي فيليميروفيتش وهو قديس من الكنيسة الصربية، قال: "قد تكون آراء البحاثة مدهشة الذكاء ولكن قد تكون خاطئة تماماً.' وأضاف: 'بينما كلمات القديسين غالباً ما تكون بسيطة، ولكن صحيحة دوماً.'

"يجب ألا نرفض البحث لكن كما أشرت، يجب أن نميز أنه إلى جانب استخدام الدماغ الذكي ,Dianoia، إلا أن الحقيقة تُدرَك بشكل أقوى بالصلاة، بحياة القداسة، بالتحنن الإلهي. يأتينا الفهم الصحيح للكتاب المقدس بواسطة إعلان الله، على هذا المستوى، للقلب، للنوس، للرؤيا الروحية، لا للعقل الاستطرادي فقط."